حول طبيعة المسيح

من الأهمية بمكان إلقاء الضوء على البحث الرصين الذى أعده العالم آلان كاردك حول طبيعة السيد المسيح واستعراض وجهة نظرة فى قضية تأليه المسيح عيسى بن مريم، وهى القضية التى دفعت الكنيسة إلى إدانة « الروحية » برمتها ورفض المبادئ التى تنادى بها.

والأمر اللافت للنظر أن العالم آلان كاردك لم يستند فى بحثه لإنكار رواية تأليه المسيح إلا إلى الأناجيل المعتمدة الأربعة المتواترة والتى أقرتها المجامع الكنسية. ورغم ذلك تواصل الكنيسة إصرارها على فرض عقيدة لا تستقيم وما جاء على لسان السيد المسيح ذاته.

وفى دراسة مستفيضة تم تجميعها ونشرها بعد رحيل آلان كاردك فصل بعنوان « دراسة حول طبيعة المسيح » تشغل حوالى ثلاثين صفحة، يكشف فيها الكاتب عن الأسباب التى استند إليها الروحانيون لتفنيد بدعة تأليه المسيح التى خرج بها مجمع نيقية الأول عام ٣٢٥ على الناس، الأمر الذى يكشف بالتفصيل وبالوثائق الدينية الدامغةعن الأسباب التى من أجلها أدانت الكنيسة علم الروحية كما أشرنا من قبل.

وتحت عنوان فرعى هو: « مصدر أدلة طبيعة المسيح » يستهل الباحث القضية قائلاً: « إن مسألة طبيعة المسيح قد تناولها البحث منذ القرون الأولى للمسيحية، ومع ذلك يمكن القول بأنها لم تستقر طالما لاتزال موضع جدل حتى اليوم(١) .. أن تفاوت الآراء وتضاربها حول هذه القضية هو الذى أدى إلى ظهور تلك الفرَقْ التى شطرت وحدة الكنيسة منذ ثمانية عشر قرنا. ومن الغريب أن جميع رؤساء النحل والفرق المنشقة عن الكنيسة كانوا من بين كبار الأساقفة وهيئة الإكليروس بمختلف مراتبها، أى أنهم كانوا من الضالعين فى العلوم

---

(١) توفى آلان كاردك فى ٣١ مارس ١٨٦٩.

اللاهوتية ولم يقتنعوا بالأسباب التى جرى تقديمها لتأليه السيد المسيح أو لإقرار عقيدة تأليهه».

ثم ينتقل الباحث إلى إثبات إغفال البحث عن أية حقائق أو وثائق دامغة تؤيد وجهة النظر تلك فتفصل فيها فصلاً قاطعًا. وبما أن يسوع لم يخلّف وراءه نصًا مدونا فإن مؤرخيه – وأعنى الحواريين – لم يسجلوا بدورهم أية نصوص أثناء حياته، فضلاً عن أننا لا نجد مؤرخًا معاصرًا ليسوع قد تعرض لسيرته على الإطلاق! ومن هنا لم يُعثر على أية وثيقة مدوّنة تشير إلى حياته أو عقيدته سوى الأناجيل التى تعد المصدر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه بشأن مسألة التأليه أو العقيدة بصفة عامة، كما لا يجوز الاعتماد على آراء آباء الكنيسة لاسيما أنهم لم يقدموا أية وثائق جديدة تقطع بسلامة مزاعمهم، فانبروا يحومون حول أنفسهم داخل حلقتهم المغلقة مع تكرار أقوال من سبقوهم حتى وإن كانت متناقضة. وانطلق جميع المؤيدين لنظرية التأليه يدعّمون هذا الاتجاه بحجج واهية متنافرة حتى لا توجه إليهم تهمة الهرطقة على نحو ما وقع لأرويجين وغيره. وبطبيعة الحال لم تورد الكنيسة فى قائمة الآباء المعترف بهم إلا من خضع لأساليبها وخضع لوجهة نظرها، ولم تضف صفة القداسة إلا على من تصدّوا للدفاع عنها فى حين سفهت آراء معارضيها وأحرقت مؤلفاتهم. وهكذا جاءت قرارات آباء الكنيسة تلفيقية مضلّلة عاجزة عن الإقناع مع استبعاد العناصر المعارضة.

ويستطرد العلامة كاردك قائلا: نحن لا ننتقد هؤلاء الآباء، فهم محامو الشيطان انبروا للدفاع عن قضية ملفقة فرضوها قسرًا، ومن ثم لا مناص أمامنا من التصدى لمزاعمهم الزائفة المنادية بتأليه المسيح، معتمدين كلية على الأناجيل المكونة للعهد الجديد التى تزودنا بأدلة قاطعة وفيرة تشجب نظرية التأليه المزعومة، فليس ثمة دليل أنصع من أقوال المسيح نفسه الواردة بالأناجيل بوضوح لا لبس فيه، لا يتيح لأى متلاعب أن يتقدم بتفسير مخالف للحكم والأمثال التى لا يخامرها شك أو يُستشف منها باطلاً لا تنطوى عليه ألبته.

وتحت عنوان فرعى آخر هو «هل يمكن إثبات ألوهيّة المسيح من خلال

المعجزات التى قام بها؟»، يقول آلان كاردك: تؤكد الكنيسة ألوهيّة المسيح اعتماداً على المعجزات التى قام بها، وفى الوقت نفسه تشهد له بقوى تجاوز طبيعة البشر. وقد يكون هذا الإدعاء مُستساغًا فى زمن كان يتقبلّ العجائب والمعجزات دون تمحيص أو تدقيق. أما اليوم فقد تسنى للعلم الكشف عن قوانين الطبيعة ولم تعد المعجزات تجد من يؤمن بها.. فقد إنهار الإيمان بها بسبب الإفراط فى استخدامها دليلاً لفرض العقيدة، حتى بات الناس ينظرون إليها باعتبارها مجرد أساطير وخرافات.

ومن الغريب أن الكنيسة نفسها قد أسهمت فى تقويض معنى المعجزات بوصفها دليلاً على ألوهية المسيح، بادعائها أن الشيطان قادر على القيام بمثل هذه المعجزات! فإذا كان الأمر كذلك وأن الشيطان يتمتع بمثل هذه القدرة فمن غير المنطقى أن تكون مثل هذه الأفعال ذات طابع إلهى! وقد كانت كبوة فادحة من جانب الكنيسة أن تبتكر منافساً ليسوع يتمتع بنفس المهارة والقدرات غير الطبيعية الزاخرة بالتناقض واللامعقول. لقد كان للدور البارز الذى شاءت الكنيسة إضفاءه على الشيطان بمثل هذا الإصرار عواقب مدمرة بالنسبة لقضية الإيمان، فإذا هذه الفرية الكارثية تنقلب عليها وتغدو السلاح الباتر الذى أسهم فى حدّها، فإذا هذا الدور ينقلب عليها ويصبح السلاح الذى شارك فى حدة النفور والسخرية منها كما أدى إلى الإلحاد والابتعاد عنها.

ويسوق آلان كاردك اعتباراً آخر لا يقل أهمية عما سبق، وهو أن المعجزات لم تقتصر على المسيحية وحدها، فما من عقيدة دينية إلا وصاحبتها معجزاتها التى ظفرت بالتصديق من المؤمنين بها، شأنهم شأن المؤمنين بالمسيحية. ثم يوضح كاردك كيف أن الطابع الأساسى للمعجزة بالمعنى الدينى هو كونها استثناء من قوانين الطبيعة، ويتعذر تفسيرها بالمتعارف عليه آنذاك من قوانين الطبيعة. ومن المعروف أنه منذ اللحظة التى يمكن فيها تفسير الحدث علمياً يكفّ الناس عن اعتباره معجزة. وهكذا استطاعت الاكتشافات العلمية أن تقدم

بعض البراهين العلمية فى مجال الطبيعة بعد أن ظلت دهوراً يعدّها الناس أحداثا خارقة لجهلهم بحقيقتها العلمية. ومع تقدم معارفنا بالمبادىء الروحية وتأثير السيال الكونى على عالمنا الأرضى وإمكانات الروح واكتشاف ملكات الجسم الأثيرى وخصائصه، أتاح ذلك كله تفسير العديد من الظواهر الغيبية. فمعظم الظواهر التى تشكّل المعجزات الواردة بالأناجيل هى فى واقع الأمر تطبيق لقواعد علمية، مثل توارد الخواطر والجلاء البصرى والطرح الروحى والشفاء الفورى وما إلى ذلك من ظواهر.

وأصبحنا على دراية بأن هذه الظواهر هى نتيجة لملكات جسدية معيّنة، وأنها قد وقعت فى مختلف الأزمنة وبين جميع الشعوب، وها هو يفسر لماذا كان لكل عقيدة معجزاتها التى ليست فى الواقع سوى ظواهر طبيعية أسرف فى ترويجها انتشار الجهل والخرافة إلى أن وضعتها معارفنا العلمية الحالية فى إطارها الحقيقى.

ويؤكد آلن كاردك أن كل ما أوردته الأناجيل بوصفها معجزات قام بها يسوع قد فسرها علم الروحية وعلم الخصائص المغناطيسية باعتبارها ظواهر طبيعية، بما أنها تتم أمام أعيننا وليس ثمة ما يحول دون أن يكون يسوع المسيح قد تمتع بنفس الملكات التى نراها من حولنا لدى الوسطاء الروحانيين أو ذوى الجلاء البصرى أو السمعى أو من أوتوا القدرة على شفاء الأمراض من خلال المعالجين من الأرواح. إن هذه القدرات متوافرة لدى العديد من الناس بدرجات متفاوتة، الأمر الذى ينفى عنها ألوهيتها.. لذلك ينصح كاردك باستبعاد المعجزات من بين الأسباب التى يتذرع بها الكهان ورجال الدين لإضفاء الألوهية على المسيح.

ثم ينتقل الباحث إلى أهم القرائن، ألا وهى أقوال يسوع نفسه فيورد من بينها:

● «وقال لهم من قَبِلَ هذا الولد باسمى يقبلنى. ومن قبلنى **يقبل الذى أرسلنى**. لأن الأصغر فيكم جميعًا يكون هو عظيمًا» (لوقا ٩ : ٤٨).

● « من قَبَلَ واحدا من أولادٍ مثل هذا باسم يقبلنى ومن قبلنى فليس يقبلنى **أنا بل الذى أرسلنى** » (مرقس ٩ : ٣٧) .

● « فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى **لأنى خرجت من قِبَلْ الله وأتيت لأنى لم آت من نفسى بل ذاك أرسلنى** » (يوحنا ٨ : ٤٢) .

● « الذى يسمع منكم يسمع منى والذى يُرذلكم يرذلنى والذى يرذلنى **يُرذل الذى أرسلنى** » (لوقا ١٠ : ١٦) .

ثم يضيف آلن كاردك أن عقيدة تأليه يسوع قائمة على المساواة المطلقة بينه وبين الله طالما أنه هو الله شخصيا كما يدّعون، إلا أن عبارة « الذى أرسلنى » التى يكررها يسوع عدة مرات لا تؤكد وجود شخصين فحسب وإنما تستبعد تمامًا المساواة المطلقة بينهما كما يزعمون، ذلك لأن المُرسلين يكونون بطبيعة الحال أقل مكانة ممن أرسلهم. ويسوع لا يفتأ يكرر المرة تلو المرة: « لم آت من نفسى **بل ذاك (الله) أرسلنى** » . كما أن عبارة « والذى **يرذلنى يرذل الذى أرسلنى** » لا تعنى المساواة بين يسوع والله، فقد جرى العرف على اعتبار أية إهانة موجّهة للسفير تُعد وكأنها موجهة لرئيس دولته، وذلك لا يعنى أن الاثنين على قدم المساواة! وتوضح الآيات التالية ذلك التفاوت بين الله ويسوع:

● « أنتم الذين ثبتوا معى فى تجاربى وأنا أجعل لكم كما **جعل لى أبى ملكوتا** » (لوقا ٢٢ : ٢٨و٢٩) .

● « أنا أتكلم **بما رأيت عند أبى** وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم » (يوحنا ٨ : ٣٨) .

ولا يكف يسوع عن تحديد الفارق بينه وبين الله، بل ويعترف بأنه أدنى منه بعبارات لا يمكن إغفالها، مثل قوله:

● « سمعتم إنى قلت لكم أنا أذهب ثم آتى إليكم لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت **أمضى إلى الأب لأن أبى أعظم منى** » (يوحنا ١٤ : ٢٨) .

● «فقال لماذا تدعونى صالحا. **ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله**» (متى ١٩: ١٧). و(مرقس ١٠: ١٨) و(لوقا ١٨: ١٩).

ونحن لم نقع قط على عبارة واحدة ليسوع يدّعى فيها مساواته بالله، بل نراه يؤكد العكس بموضوعية تامة، معترفًا بأنه أدنى من الله قدراً. الأمر الذى يؤكد أن المسيح ليس إلهًا. وذلك ما تؤكده الآيات التالية:

● «لأنى لم أتكلم من نفسى **لكن الأب الذى أرسلنى** هو أعطانى وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم وأنا أعلم أن وصيته هى حياة أبدية فما أتكلم أنا به **فكما قال لى الأب هكذا أتكلم**» (يوحنا ١٢: ٤٩ – ٥٠).

● «أجابهم يسوع وقال تعليمى ليس لى **بل للذى أرسلنى**» (يوحنا: ٧: ١٦).

● «الذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى والكلام الذى تسمعونه ليس لى **بل للأب الذى أرسلنى**» (يوحنا ١٤: ٢٤).

● «السماء والأرض تزولان ولكن كلامى لا يزول وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم أحد ولا الملائكة الذين فى السماء **ولا الابن إلا الأب**» (مرقس ١٣: ٣١ – ٣٢) و(متى ٢٤: ٣٦).

● «... ولست أفعل شيئا من نفسى بل أتكلم بهذا كما علمنى أبى **والذى أرسلنى هو معى ولم يتركنى الأب وحدى لأنى فى كل حين أفعل ما يرضيه**» (يوحنا ٨: ٢٨ – ٢٩).

● «لأنى قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتى **بل مشيئة الذى أرسلنى**» (يوحنا ٦: ٣٨).

● «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئًا. كما أسمع أدين ودينونتى عادلة لأنى لا أطلب مشيئتى **بل مشيئة الأب الذى أرسلنى**» (يوحنا ٥: ٣٠).

● «وأما أنا فلى شهادة أعظم من يوحنا لأن الأعمال **التى أعطانى الأب**

لأكملها هذه الأعمال بعينها التى أنا أعملها هى تشهد لى **أن الأب قد أرسلنى**» (يوحنا ٥ : ٣٦).

● «ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى **وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله**. وهذا لم يعمله إبراهيم» (يوحنا ٨ : ٤٠).

وبما أن السيد المسيح لا يقول شيئًا من عنده، فذلك يعنى أن العقيدة التى يدعو إليها ليست من صنعه وإنما نقلها هو عن الله الذى أوفده لهداية البشر، وأن الحقيقة التى يدعو إليها هى من لدن الله وأنه خاضع لمشيئته وإرادته يلْقَها عن الله سبحانه الذى يُخضع يسوع لمشيئته وإرادته. وهو ما يعنى أنه ليس بإله وليس الله – كما يزعمون، وإنما هو رسوله الخاضع له والأقل منه شأنًا.

ويؤكد ألن كاردك أنه يتعذر إنكار ألوهية السيد المسيح بطريقة أكثر موضوعية من الرجوع إلى أقوال يسوع نفسه، ولا يمكن تحديد دوره الحقيقى بعبارات أكثر دقة مما صدر عن يسوع شخصيًا. فليست هذه النصوص أقوالاً غامضة مبهمة عسيرة على الفهم إلا إذا لجأنا إلى لىّ عباراتها الجلية الشديدة الوضوح ولا تحتمل أى تفسير مخالف لما تقصده وتعنيه.

ويوضح آلن كاردك إضافة إلى ما سلف: فما من إنسان عاصر يسوع أثناء حياته كان يعتبره إلهًا، بل على العكس، فإن إنجيل يوحنا الذى يعتمد عليه المحرّفون للدلالة على تأليه السيد المسيح أو لاصطناع عقيدة التأليه، هو أكثر الأناجيل احتشادًا بأدلة موضوعية متعددة تنسف ادعاءات التأليه بإصرارها على تأكيد الفارق الواضح بينه وبين الله، ومنها على سبيل المثال:

● «فأجابهم يسوع **أبى يعمل حتى الآن وأنا أعمل**» (يوحنا ٥ : ١٧).

● «... من لا يُكْرم الابن لا يكرم الأب الذى أرسله» (يوحنا ٥ : ٢٣).

● «الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامى **ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية**» (يوحنا ٥ : ٣٤).

● «وهذه هى الحياة الأبدية ان يعرفوك **أنت الإله الحقيقى وحدك، ويسوع المسيح الذى أرسلته**» (يوحنا ١٧ : ٣).

● «أنا مجدتّك على الأرض. **العمل الذى اعطيتنى لأعمل قد أكملته**» (يوحنا ١٧ : ٤).

● «والآن علموا أن **كل ما أعطيتنى هو من عندك**» (يوحنا ١٧ : ٧).

● «لهذا يحبنى الأب لأنى أضعُ نفسى لآخذها أيضًا. ليس أحد يأخذها منى بل أضعها أنا من ذاتى. لى سلطان أن أضعها ولى سلطان أن آخذها أيضًا. هذه الوصية قبلتها من أبى» (يوحنا ١٠ : ١٧و١٨).

● «ونادى يسوع بصوت عظيم وقال **يا أبتاه فى يديك أستودع روحى**. ولما قال هذا أسلم الروح» (لوقا ٢٣ : ٤٦).

وهنا يؤكد كاردك: لابد من الإشارة إلى أن يسوع عند احتضاره استودع روحه بين أيدى الله، أى أنه حتى آخر لحظة فى حياته كان يعرف أن هناك فارق بينه وبين الله، وأنه خاضع له، أى أنه ليس الله بأى صورة من الصور! كما تكشف الآيات التالية عن بعض الضعف الإنسانى الذى انتابه أمام الموت وإزاء ما تكبده من آلام. وهنا يقول كاردك: «ما من شك فى أن ردود الأفعال تلك تناقض الطبيعة الإلهية التى يُضفيها الكهنة الدجالون عليه، كما أنها من ناحية أخرى تدل على خضوع مرءوس لرئيسه والإنصياع لمشيئته»:

● «ثم أخذ معه بطرس وابنى زبدى وابتدأ يحزن ويكتئب. فقال لهم نفسى حزينة جداً حتى الموت.. امكثوا ههنا واسهروا معى. ثم تقدم قليلاً وخرَّ على وجهه يصلى قائلاً يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس. **ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت**» (متى ٢٦ : ٣٨ و٣٩).

● «ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً إيلى إيلى لما شبقتنى أى **إلهى إلهى لماذا تركتنى**» (متى ٢٧ : ٤٦).

● «قال لها يسوع لا تلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى. ولكن إذهبى إلى إخوتى وقولى لهم **إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى والهكم**» (يوحنا ٢٠ : ١٧).

ويوضح ألن كاردك أن كل أقوال يسوع تفرّق بوضوح بينه وبين الله، وكأنه بهذا التأكيد المتتالى، والذى لم نعرض منه إلا بعض النماذج، يبدو أن السيد المسيح كان يحتج مسبقًا على ذلك الدور الذى أرادوا فرضه عليه ومساواته بالله. فلو لم يقل شيئًا لمرت جريمة تأليهه بالرغم مما جابهته من معارضة – للعديد من الاحتمالات. أما عباراته القاطعة بمثل ذلك الإصرار والوضوح فلا تدع مجالا لأى شك، فهو نبى مرسل من قِبَلْ الله الذى ليس كمثله شىء. فمن ذا الذى يمكنه معرفة حقيقة يسوع أكثر من ذاته هو ومن أقواله؟! ما الذى يمكن أن يقوله أى شخص من العابثين أمام عبارات كهذه:

«لم آت من نفسى ولكن الذى أرسلنى هو الإله الوحيد الحقيقى؛ لم آت من نفسى بل ذاك (الله) أرسلنى؛ أنا أتكلم بما رأيته عند أبى. قلت أمضى إلى الأب لأن أبى أعظم منى؛ ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله؛ لأنى لا أتكلم من نفسى لكن الأب الذى أرسلنى هو أعطانى وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم؛ تعليمى ليس لى بل للذى أرسلنى؛ والكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للأب الذى أرسلنى؛ ولست أفعل شيئًا من نفسى بل أتكلم بهذا كما علمنى أبى؛ أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئًا؛ هذه الأعمال بعينها التى أنا أعملها هى تشهد لى أن الأب قد أرسلنى؛ أنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله؛ أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته؛ ونادى يسوع بصوت عظيم وقال يا أبتاه فى يديك أستودع روحى؛ أنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم».

ويعلق ألن كاردك قائلاً: «عنا ما يطالع المرء هذه الأقوال الشديدة الوضوح لابد وأن يتساءل كيف امتدت أيدى العابثين من أساقفة الكنيسة إلى تحريف

معناها بمثل هذا الاجتراء وإستنباط معانٍ مخالفة تمامًا لما تنطوى عليه وتساوى بين النبى الإنسان والإلهه الذى أرسله؟!.. ويعجب كاردك لبقاء هذا الخلاف على امتداد كل هذه القرون «فالأناجيل التى لا توجد إلى جوارها وثائق أخرى تحمل أقوال يسوع التى لا يمكن أن تؤدى إلى تأليهه. إن العقيدة التى اختلقوها بعد ثلاثة قرون من المعارك الطاحنة حول طبيعة يسوع، ظلت هدفًا للهجوم عليها بشدة طوال عدة قرون لم يستتب لها الأمر إلا بضغوط السلطة المدنية والكنسية المطلقة».

إن التمييز بين الله ورسوله يسوع واضح بصورة قاطعة، فالله يعتبره عبدًا من عباده، ومن ثم فهو خاضع له، وليس ثمة عبارة واحدة تتضمن فكرة المساواة فى أى مجال بين الاثنين. وهنا يتساءل آلن كاردك ساخرًا: «تُرى هل أخطأ الله فإذا رجال الكنيسة الذين أتوا بعد يسوع بثلاثة قرون يتصدّون لتصويب ما وقع فيه من خطأ؟! لعل هذا فى نظرى هو التفسير الوحيد لإدعاءاتهم»!

ثم يوضح الباحث أن فكرة التأليه هذه قد أتت تدريجيًا نتيجة للمناقشات التى دارت بين رجال اللاهوت لتفسير معنى كلمة «الكلمة» و«الابن» ولم يستقر لهم الأمر إلا خلال القرن الرابع فتبنّاها عدد من رجال الكنيسة فى حين عارضها الباقون.

وهو ما يعنى بوضوح أن هذه العقيدة هى حصيلة قرارات بشرية ومن ثم لا يمكن قبولها على أنها منزّلة من عند الله لأنها تخالف أقوال يسوع الإنسان النبى المرسل من الله، بوصفه سفيرًا مكلفًا بتبليغ الرسالة التى عهد بها إليه مليكه. فحينما يقول يسوع: «**لا أتكلم من نفسى لكن الأب الذى أرسلنى هو أعطانى وصية ماذا أقول**»، و«**تعليمى ليس لى بل للذى أرسلنى**»، و«**الكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للأب الذى أرسلنى**» لا نستطيع تكذيبه وإضفاء طبيعة الله العليا عليه، وحسبانه من نفس طبيعته!! فالمتلقى لا يمكن أن يكون هو المانح أو يكون مساويًا له.

ثم ينتقل كاردك إلى عبارتى «ابن الله» و«ابن الإنسان» مؤكداً أنهما أبعد ما يكونان عن الدلالة على المساواة، بل على العكس فهما يشيران إلى التبعية، لأن المرء يكون عادة تابعاً لشخص آخر ولا يُعقل أن يكون تابعاً لنفسه. أما القول بأن يسوع يقف من الله موقف الندّ والمساواة فهذا يخلع عنه صفة «المخلوق» فى حين تقول العقيدة إن الله قد «أنجبه» منذ الخليقة، كما أن عبارة «مولود لله» الواردة بالإنجيل تعنى «مخلوقًا» سواء أكان ذلك من الأزل أم لا، فهو من ثم خاضع لخالقه وليس مساويا له. فعلى أى سند اعتمد أولئك الذين اختلقوا عقيدة تأليه يسوع؟ فلاهم اعتمدوا على أقوال يسوع الذى يفرق – كما رأينا – بينه وبين الله، ولاهم اعتمدوا على أقوال الأنبياء السابقين الذين تنبأوا بمجيئه بوصفه عبد الله. ففى أية وثيقة أخرى أبعد شأنًا من أقوال يسوع وغيره من الأنبياء الغابرين وقعوا على ما يبرر مغالطاتهم التعسّفية التى فرضوها على الناس قسرًا وقهرًا؟

ومن الملاحظ أنه طوال هذه المعركة التى شغلت البشر على امتداد القرون ولاتزال محتدمة، وأسفرت عن إشعال المحارق وسفك الدماء، قد جرى التركيز على فرض هوية إلهية على يسوع دون أن يكترث أولئك البطاركة والقساوسة بالتعاليم التى أتى بها وأوصى بالتزامها مثل الله محبة، والعطف على الأقارب والبرّ والإحسان بل كادوا يهوّنون من شأنها.

ويختتم آلن كاردك بحثه قائلاً: «إذا كانت عقيدة الإيمان الصادرة عن مجمع نيقية الأول عام ٣٢٥ والقائلة بألوهية المسيح قد صيغت وفقًا لتعاليمه فما معنى عقوبة «اللعنة والحرمان» التى طبقتها الكنيسة على معارضى قضية تأليه عيسى؟ أليس هذا التعسف أنصع دليل على خضوع أقطاب هذا التوجه لأهوائهم وللضغوط الجارفة دليل على تحيّز من صاغوها وأهوائهم؟! ألا يشير ذلك إلى الضغوط السياسية التى مارسها الامبراطور قسطنطين؟ فلولاه ما انعقد مجمع نيقية، ولولاه لرجحت كفّة العقيدة الأريوسية الرافضة لتأليه المسيح..

وبمعنى آخر أن هذا الإجراء الشاذ قد تم تنفيذا لرغبة إنسان لا ينتمى إلى آباء الكنيسة أصلا، ومن سخرية الأقدار أنه اعترف آجلا بجسامة الخطيئة التى ارتكبها!.. فبعد ثمانية عشر قرنا من المناقشات البيزنطية العقيمة التى انتهت إلى تهميش الدعوة الأساسية التى تنطوى عليها تعاليم يسوع، وهى التعاليم الوحيدة التى كان بوسعها رفع راية السلام بين البشر، انتهى بنا المطاف إلى الملل والضيق بتلك المناقشات العقيمة التى لم تؤد إلا إلى الإلحاد وفقدان مصداقية نظرية تأليه المسيح لافتقارها إلى المنطق.. وتلفت أنظارنا اليوم محاولات جادة من جانب الرأى العام، للعودة إلى التعاليم الأساسية والأخلاقية ليسوع لأنها وحدها القادرة على أن ترقى بسلوك البشر: الله محبة، وحب القريب، والبرّ والإحسان.. فلو قد اتبعت الكنيسة ذلك منذ البداية لما بلغت مشارف إنهيارها، ولما تصدعت وتفرقت إلى فرق ونحل متناحرة تتراشق باللعنات لأسباب غير مفهومة فى معظم الأحيان».. ولا نجد دليلاً أنصع مما قاله يسوع نفسه كى نفرغ من هذه القضية: «أنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله»!

وفى جلسة روحية حضرها آلن كاردك فى ٣٠ سبتمبر ١٨٦٣، أملَتْ الروح المرشدة هذه الرسالة: «لقد حان الوقت الذى يتعيّن فيه على الكنيسة أن تقدم كشف حساب عن الأمانة التى أُنيطت بها وعن الطريقة التى مارست بها تعاليم المسيح، وعن التعسف الذى رسّخت به سلطاتها، وعن حالات الإلحاد التى اعتنقها جمهورها ورعيّتها.. لقد أزف الوقت الذى يتعين عليها أن تعيد فيه ما لقيصر إلى قيصر وأن تتحمّل مسئولية تصرفاتها. لقد أصدر الله حكمه عليها وقضى بأنها غير جديرة بحمل رسالة التقدم التى تناط بالسلطة الدينية. ولن تستطيع الصمود والاستمرار إلا إذا أقدمت على إجراء تغييرات جذرية فى مواقفها، لكن، ترى هل ستخضع لهذه التغيرات المنشودة؟ نحن لا نعتقد ذلك، وعندها لن تكون ما هى عليه.. فلكى تتقبّل الحقائق والاكتشافات العلمية عليها العدول عن تلك العقائد التى شكلتها على هواها لترسيخ سلطانها وقهر

أتباعها لمواصلة وجودها.. ولكى تعود إلى المبادئ التى نادى بها يسوع وتتعهد بتطبيقها فى ممارسة جادة صادقة، حتمٌ عليها التخلى عن سلطاتها وإيقاف البذخ والالتزام بالبساطة والتواضع. فلا خيار لها إلا بين موقفين: إن قبلت التغيير فكأنها تنتحر؛ وإن ظلت جامدة متحجرة إنهارت تحت أقدام التقدم.

«نحن نعلم يقينا أن علم الروحية سيُصيب البابوية بالعديد من الانقسامات والتصدعات التى بدأت بوادرها بصورة حاسمة فى إيطاليا. لذلك لا يهولُنا العنف الذى تحارب به الكنيسة علم الروحية وأتباعه.

«وعلى كل حال فإن الصراع بين الكنيسة والعلم قد بدأ، وهو صراع أشد ضراوة من صراعها ضد الروحية. إن التقدم العلمى يحاصر الكنيسة ويهاجمها ويأخذ تبلابيبها من كل اتجاه، ولسوف تنهار تحت ضرباته.. إن سرعة الأحداث تُنذر بمصيرها الحالك، بل من الواضح أن الكنيسة نفسها هى التى تحفر قبرها بيديها متعجلة حتفها»!

وإذا ما ربطنا بين هذه التنبؤات ووما تم التوصل إليه من نتائج مشجعّة بأخرة فى حقل الروحية فضلاً عن الاكتشافات العلمية المبهرة المتدفقة لأدركنا المصير الحالك الذى يخبّؤه القدر للكنيسة ولشطحاتها.

فمخطوطات قمران التى تم اكتشافها فى منتصف القرن العشرين والتى حجبت الكنيسة نشر محتواها على مدى خمسين عامًا لما تحفل به من معلومات كاشفة، حسبُها أن خَلَتْ من أية إشارة إلى السيد المسيح فى حين أنها أقرب النصوص إلى عهده. لذلك يُعدّ العثور على هذه المخطوطات ضربة موجعة لإدعاءات الكنيسة المغلوطة، إضافة إلى كل ما واكبها من اكتشافات وأبحاث جامعية لاهوتيه تؤكد أن المؤرخين المعاصرين ليسوع لم يضمّنوا رواياتهم أى شىء عنه، سواء سيرته أو عقيدته. وقد أوضحنا ذلك بالتفصيل فى كتاب «**الإلحاد وأسبابه، الصفحة السوداء للكنيسة**»[1]. ناهيك عما تقدم به القس

(١) صادر عن دار الكتاب العربى ٢٠٠٤.

الإيطالى السابق لويچى كاتشيولى الذى اعتزل منصبه الكنسى ونشر بحثًا بعنوان «**مهزأة المسيح**» الصادر فى يناير ٢٠٠١، وأثبت فيه جريمة اختلاق عقيدة تأليه السيد المسيح، كما رفع دعوى قضائية ضد كنيسة الفاتيكان لاستغلالها لسلطاتها فى التدليس على رعيّتها وفرض أكاذيبها الفاجرة، مستندًا إلى المادتين ٦١٦ و٤٩٤ من قانون العقوبات الإيطالى بتهمة إحلالها شخصية محل شخصية أخرى وفرض هذه الأكاذيب على الأتباع. وقد أثبت القس السابق بالوثائق ان كل ما قدمه التعصب الكنسى للرعية إن هو إلا أكاذيب مختلقة.. الأمر الذى يتفق أيضًا ومقولة بولس الرسول الجلية ولا لبس فيها ضمن رسالته إلى أهل رومية ٣ : ٧ «إن كان صدق الله قد ازداد بكذبى لمجده، فلماذا أُدان أنا بعدُ كخاطىء»؟!

إن بولس الرسول يعترف بأنه قد لجأ إلى الكذب لإثبات مصداقية الله الذى اختلقوه، كما يقر بأن هناك من بين مستمعيه من أدانه كخاطىء.. وحسبى هذا، فالنصوص الإنجيلية الواردة بهذا الشأن واضحة صريحة فى التفريق بين الله والسيد المسيح بما يكفى للفصل بين الصدق والأكاذيب، وتتضمن ما يكفى لتوضيح موقف الروحانيين المؤمنين بأن الله ليس كمثله شىء وبأن عيسى بن مريم هو مجرد نبى من المرسلين لهداية البشر. وهو ما يكشف التعصب الكنسى القائم على اختلاق عقائد تصدعت بالفعل تحت ضربات التقدم العلمى الذى لم يعد من الممكن بعدها التحايل لترويجها. إن مجرد إنكار هذا التقدم أو محاولة التعتيم عليه يحمل فى طياته التعجيل بسقوط الكنيسة على نحو ما تنبأت به الأرواح المرشدة.

* * *